«إذا كانت المحبة، على صورة الله، هي صيغة الإنسان، فمن البديهي أن يحب الإنسان فقط ما هو أبدي».

(بول إفديكيموف)

«إن بنيان جسد المسيح في العالم (الكنيسة) يتم من خلال قبول المسيح وتغيير (تجلّي) الذات».

(ألكسندر إلكانينوف)

«إن البهاء الإلهي ينعكس في ومن خلال كل الأشياء المتنوعة الذي صنعها الخالق، ولكنه يشرق بشكل متألق من أيقونة الله الحيّة، الإنسان».

(الأسقف كاليستوس وير)

«لكن عندما يحلّ المسيح فينا، ماذا نريد بعد، أو أي منفعة تهرب منا؟ عندما نحلّ في المسيح، ماذا نشتهي بعد؟ إنه يحلّ فينا وهو المكان الذي نحل فيه».

(نيقولا كاباسيلاس)

أين الاكتفاء؟

عجيبة هي أحوالنا! نأتي من المصدر وننساه. نتخلى عنه في خضم الحياة ونجعل ذواتنا المصدر، الأساس والمحور. نذوب في حنايا الأنا وعظمتها. نجاهد وننشغل لأجل ذواتنا ونجاحنا على حسابنا وحساب الآخرين. ننسى مَن نحن. نفقد الرؤيا الحقّة للأمور. تتشوّه نظرتنا ونصبح نحن الخالقين ومصدر الخليقة، فنخلق إلهًا على صورتنا ومثالنا. نغدو مسيحيين وثنًا من دون أن ندري، وهذا هو التشويه الحق، العمل الرديء للحقيقة.

إننا بهذا نفقد المعنى لأننا ابتعدنا عن الجوهر وتغيّر المصدر. المصدر الجديد هو الأنا، وأما المصدر الحق فهو الله الخالق في حب أحبائه. المصدر الجديد تكتنفه الأنانية وحب الذات، وأما المصدر الحق فهو المنسكب انسكابًا وتضحية في ذوات خليقته. هذا التحريف في المصدر بدّل كل المعادلات وأخلّ بكل التوازنات. لقد فقدت بسببه الخليقة إيقاعيتها المتوازنة، وتبدّلت القوى والمفاهيم من إلهية إلى بشرية، من واهبة معطاءة إلى آخذة مكتنزة. وهكذا بدا لنا أن الأحرف هي التي تكوِّن الكلمة بدلاً من أن نرى أن «الكلمة» الذي قبل الدهور قد «كوّن الأحرف» ووهبها المعنى والجوهر؛ إنه هو الذي أعطاها كيانها تحت الشمس و«كان كل شيء حسنًا».

إن هذا الالتواء في الرؤية، هذا الانحراف عن الطريق قد أضاع علينا تلك الوثبات إلى النور وقد أدخلنا ظلام الذات ومحدوديتها. فإننا بدلاً من أن نكون متوثبين إلى الآتيات من المصدر الحق ونتحرّك نحو الذي هو «الطريق والحق والحياة»، ننغلق وندور حول ذواتنا حيث الانكفاء، التقوقع والجمود. إننا هكذا من دونه نصير جزيئيات لا هدف لها، من دون جوهر وبلا معنى. تأتينا حياة الدنيا بالولادة وتأخذنا رمادًا. نتعارك في حنايا الوجود للمجد الأرضي، للغنى، للشهرة والنجاح، ونكتشف أنه ليس هناك امتداد ولا اكتفاء. ليس هناك نهاية. إن أسباب الطلب كثيرة والاكتناز لذيذ فلا نشبع.

أما إذا أردنا أن يكون «الكلمة» هو مصدر حياتنا الأرضية وأساسها ومحورها، فإننا نكون في تحوّل دائم، في حركة حب أسرارية تصاعدية وتجاوبية دائمة معه. نصبح في اكتفاء لأن لا شيء يهمّنا سواه.

فإن «قلبي حيث كنزي». إنه هو الكنز الذي لا ينضب. كل شيء في حياة الدنيا يُصبح له معنىً وأبعاد أبدية لأنه هو الذي ينطق حياةً ونرى فيه ومن خلاله لمسات الله.

طالما أننا إذ أردنا أن نكون على وِصال به لأنه هو بالأساس الأصل، وطالما أننا إذ قد لبسناه في الولادة الروحية -في سر العماد– «أنتم الذين بالمسيح اعتمدتم المسيح قد لبستم»، فإننا لم نبق بعد مولودي الحياة الدنيا بل الحياة الحقّة، ولن نؤخَذ رمادًا بل نعمةً. هكذا منذ لبسنا المسيح أصبحنا خليقة جديدة ومُختارة. إن هويتنا قد تجدّدت، وبقبولنا أن نكون على وِصال مع الكلمة فإن مسلكنا وعلاقتنا بالخليقة يأخذان منحىً آخر، فيصيران علاقة عشق ومسؤولية، ويحقّ لنا بعمادنا إسم جديد، «فنُدعى بإسم الله».

هنا تُصبح حياة الدنيا سعيًا إلى المجد الإلهي، فإننا بمجد الله نتمجّد، وهكذا نتذوّق طعم النعمة التي لا تنضب والتي لا نريد سواها. إنها الوحيدة «التي تفيض سواقيها فتروّي البرايا بأسرها بالنار المحيية»، وهي التي لا عطش بعد الشرب منها. حينئذٍ تتحوّل حياة الدنيا من مُلك خاص إلى ملكوت سماوي، من غنىً ونجاح فردي إلى فردوس نتذوّق فيه الغاية من تكويننا، وهي أن نكون على مثال الله، فتؤول مطالبنا التي لم تكن تنتهي إلى مطلب واحد وهو الحياة الأبدية حيث الاكتفاء.